ولذكر الله أكبر



جمع وتأليف

نادى بن عبدالعزيز

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

اَلْحَمْدُ للهِ جَلِيسِ الذَّاكِرِينَ ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّ اللهِ ، مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ، خَيْرِ الذَّاكِرِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ الغُرِّ الْمَيَامِينِ ،وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعد

فإنني في هذه الوريقات القليلة ، أحاول جاهدا ـ بفضل الله عز وجل وَجوده ـ أن أتتبعَ فضائلَ الذكر ، الذي هو أوصدُ الأبواب أمامَ نزغاتِ الشيطان الخناس ، هذا الباب الذي لا يَحرز المسلم نفسَه من عدوّه إلا به ، ولا يدخل عليه العدوُّ إلاّ إذا أُهمل ، فهو يرصُدُه ، فإذا غفل وثب عليه وافترسَه، وإذا ذكرَ اللهَ عز وجل انخنس وتصاغر حتى يكون كالذّباب .

واعلم أخي المسلمَ ، أن حياةَ قلبك في ذكرك ربك ؛ فلا حياة ولا نبض لقلبك إلا بذكره .

ولقد وصف نبينا ﷺ البيتَ الذي لا يُذكر الله فيه بالميت ، فقال كما عند مسلم : " مَثَل البيت الذي يُذكر الله فيه ، والبيت الذي لا يُذكر الله فيه مَثَلُ الحيِّ والميِّت" " ،

ووصف ﷺ الذي لا يذكر ربه بالميت فقال :" مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت"؛ فكأنه ﷺ أراد أن يقول أنّ أبدان الغافلين قبورٌ لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور ، **فلا تجعلوا قلوبكم أمواتا ، وبيوتكم قبورا لها .**

وقد حدد الله للنبي ﷺ مسئوليته بقوله تعالى: " **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ** " ، إنما: أداة حصر، حصر للمسئولية التي بعث الله محمدًا ﷺ لها، وهي تذكير الأمة: **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ** ، ويقول له: " **وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ** " ، لا تنفع الناس كلهم، بل تنفع شريحة واحدة من المجتمع وفئة واحدة من الناس . أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم ـ وهم أهل الإيمان: **وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** ، والله يحدد صفات أهل الإيمان في أول سورة الأنفال فيقول: " **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً** " ، هذه شهادة من الله: **أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** .

روى الإمام البخاري في صحيحه من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :

" سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ :

الْإِمَامُ الْعَادِلُ (ولا أعدل في الدنيا من النبي ﷺ ، فلذا أحبه أصحابه) .

وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ .

(حتى قال النبي ﷺ يوما : "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ").

وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ (حتى إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيُنَادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ جِيرَانِي ؟ ، أَيْنَ جِيرَانِي ؟ ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ : رَبَّنَا وَمَنْ يَنْبَغِي أَنْ يُجَاوِرَكَ ؟ ، فَيَقُولُ : أَيْنَ عُمَّارُ الْمَسَاجِدِ ؟)

وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ .

(اجتمعا على الحب في الله ، أحب فيه حبَّه لله ، ولما انتكس أحدهما عن الله نصحه ، فلما لم يستجب لأمر ربه ؛ تركه صاحبه لذلك ، أو ظلا على حبهما في الله حتى مات على ذلك أحدهما أو كلاهما) .

وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ .

(ولا أفضل وأعظم في ذلك من يوسف عليه السلام، وربما يشبهه من وجهة ما ، رجلُ الغار ، لما تمكن من ابنة عمه ، قالت له : اتق الله ولا تفضن الخاتم إلا بحقه ، فتركها وهي أحب النساء إلى قلبه) .

وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ .

(فالصدقة دليل الإيمان ؛ قال ﷺ:" والصدقة برهان ") .

ثم قال ﷺ :

وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ .فاللهم إني أعوذ بك من عين لا تدمع .

سار ﷺ في الطريق يوما فوقف على باب امرأة من الأنصار فإذا هي تقرأ في صلاتها:

"هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ".

فبكى رسول الله ﷺ بكاء شديدًا، وقال: " **نعم أتاني، نعم أتاني**" .

الناس ثلاثة أنواع في ذكر الله :

١. نوع لا يذكرون الله إلا قليلا : وهذه من علامات المنافقين :

قال تعالى : "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣) النساء .

قال بعض العلماء:

ختم الله عز وجل سورة المنافقون بقوله عز وجل : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" (٩) المنافقون ، في إشارة بيانية لطيفة ، تظهر لك أن الذكر أمان لقلبك من النفاق.

٢. نوع لا يذكرون الله أبدا : وهذه من علامة حزب الشيطان :

(**علاقة الشيطان بالذكر**) :

قال عز وجل : " اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) المجادلة .

قال عز وجل :"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) المائدة .

وقال عز وجل : " وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) الفرقان .

وقال عز وجل في هؤلاء:

" وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) " الكهف .

فكلما حلّ الشيطانُ ، غَفَلَ القلبُ عن الذكرِ .

عقاب هذا النوع :

١- يعيش في ضيق في الدنيا والآخرة :

قال ﷻ : "وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) " طه.

فكما عميت في الدنيا عن ذكرنا ، فإنا ننساك في عذاب جهنم ؛ فجزاؤك من جنس عملك.

أي نتركك في العذاب كما تركت آياتي فلم تذكرها ولم تعمل بها وأعرضت عن ذكرنا .

واعلم - رحمك الله - أن الحق - تبارك في علاه - حين وصف سوء حال الغافل عن ذكر الله في الدنيا ، لم يعبر عن ذلك بلفظة (حياة) ، وإنما استعاض عنها بلفظة أخرى وهي (معيشة) ، وهذا إنما ينبئ أن الغافل واللاهي استدرجته معيشته المادية من زخارف الدنيا وزينتها وشهواتها ، حتى ملأت قلبه فأُشرِب حبها ، فاستحوذت عليه وأنسته ذكر ربه ، فهو ما أراد أن يحيا حياة العبد لربه ، إنما كان همه أن يعيش أية معيشة ، سواء كانت كالبهائم أو أقل ، فهو مثلهم في الأكل والشراب والنوم والتزواج .

فاستخدم الحكيم ﷻ ما يناسب أغراضهم في دنياهم (معيشة) .

والمتأمل في هذه الآية والآيات التي سبقتها ، يرى أن المولى ﷻ ، قد ربط هذا الإعراض ، وهذه المعيشة الضنك ، بحياة اللاهي الغافل الذي همه كله الطعام والشراب والجاه والملك والسلطان ، فإنك إذا نظرت إلى ما سبقها من آيات ، تجد قوله :" فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) طه .

وكأن الحق ﷻ يؤكد أن حب الدنيا مبدأ كل آفة ، ألا وإن أكبر الآفات الإعراض عن الذكر.

ومثله قوله ﷻ :" وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ" ٩٦ البقرة .

فهم يحرصون على أن يعيشوا أطول مدة في الدنيا (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ) ، وهم لا يبالون أن يعيشوا في ذلة كانت أو في مسكنة ، أو أي نوع من أنواع الحياة، المهم أنهم يعيشون في أية حياة ؛ فالدنيا هي كل همه وكل حياته ؛ لذلك يتمنى أن تطول حياته بأي ثمن وبأي شكل ، ولذا فإن الغافل يوم القيامة يَصرخ ويتمنى - لمّا يُبصر الحقيقة - فيقول :

" يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي" (٢٤) الفجر .

فيدرك حينها أنه لا عيش إلا عيش الآخرة ، ويتيقن وقتها أن" الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ " .

ولنتأمل قول الكافر الغافل اللاهي (لحياتي) وكيف أنه لم يقل (في حياتي) ؟!

لأنها لم تكن حياة إنسان عابد؛"إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا" (٤٤)الفرقان .

وهؤلاء في الدنيا " وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ " (١٣) الصافات .

فهُمْ لِقَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ إِذَا وُعِظُوا لاَ تَنْفَعُهُم المَوْعِظَةُ، لأَنَّهُ قَدْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مِنَ الذُّنُوبِ والخَطَايَا.

وعلى نقيض ذلك ، فقد أمر ربنا ﷻ عبادَه ، أن يستجيبوا له باتباع دينه والتبرؤ من الشرك وأهله ، ووعدهم إن هم اتبعوا الذكر ، أن يحييهم هو حياة طيبة يرضاها لهم .

فالمؤمن الحقيقي هو الذي قال فيه ﷺ : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ فلا يرجو ـ من الدنيا ـ إلا ما يعينه على ذكر ربه .

فقال ﷻ :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) الأنفال .

وأخبرنا عز وجل أن هذه الحياة التي وعدهم إياها ، هي الحياة الطيبة " .

فقال تعالى : "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) " . النحل .

فهؤلاء ـ على نقيض من قال : يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ـ هؤلاء علموا أن (هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) ما هي" إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) "العنكبوت.

فحياة المؤمن في الجنة هي الحياة الحقيقية الأبدية الدائمة .

وهذه هي النتيجة الطبيعة للعمل الصالح الذي يبتغي صاحبه وجه الله والدار الآخرة، فيجمع الله له حظين من الجزاء، حظاً في الدنيا بالحياة الطيبة الهانئة " فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً"، وحظاً في الآخرة:"وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ " .

لطيفة : مَا الْفَرْقُ بَيْنَ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، حَتَّى يَصِحَّ عَطْفُ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ؟

الْفَرْقُ مِنْ وَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا:

أَنَّ كُلَّ شُغُلٍ يُفْرَضُ، فَإِنَّ الْمُكَلَّفَ إِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ لَزِمَهُ الْإِعْرَاضُ عَنْ غَيْرِهِ .

وَمَنْ لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، فَالَّذِي يُقْبِلُ عَلَى الباطل للذة يسيرة زائلة فِيهِ ، يَلْزَمُهُ الْإِعْرَاضُ عَنِ الْحَقِّ فَالْإِقْبَالُ عَلَى الْبَاطِلِ لَعِبٌ وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْحَقِّ لَهْوٌ، فَالدُّنْيَا لَعِبٌ أَيْ إِقْبَالٌ عَلَى الْبَاطِلِ، وَلَهْوٌ أَيْ إِعْرَاضٌ عَنِ الْحَقِّ .

الثّاني:

هُوَ أَنَّ الْمُشْتَغِلَ بِشَيْءٍ يُرَجِّحُ ذَلِكَ الشَّيْءَ عَلَى غَيْرِهِ ، وإِمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ التَّرْجِيحُ عَلَى وَجْهِ التَّقْدِيمِ بِأَنْ يَقُولَ أُقَدِّمُ هَذَا وَذَلِكَ الْآخَرُ آتِي بِهِ بَعْدَهُ أَوْ يَكُونَ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِغْرَاقِ فِيهِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ غَيْرِهِ بِالْكُلِّيَّةِ فَالْأَوَّلُ لَعِبٌ وَالثَّانِي لَهْوٌ، فَالدُّنْيَا لِلْبَعْضِ لَعِبٌ يَشْتَغِلُ بِهِ وَيَقُولُ بَعْدَ هَذَا الشُّغْلِ أَشْتَغِلُ بِالْعِبَادَةِ وَالْآخِرَةِ، وَلِلْبَعْضِ لَهْوٌ يَشْتَغِلُ بِهِ وَيَنْسَى الْآخِرَةَ بِالْكُلِّيَّةِ.

٢. يعيش في ظلمات ولا يخرج منها :

قال ﷻ: " أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) الأنعام .

ضرب الله لنا هذا المثال ، فالأول هو المؤمن استنار بالإيمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره والآخر هو الغافل اللاهي الساهي عن الله ﷻ ، المعرض عن ذكره ومحبته .

نكتة في الآية : قال ﷺ :" مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ".

فَالْعَبْدُ لَمَّا أَحْيَا الأرض الميتة صارت له وحده ومن نصيبه ليس لأحد غيره حقٌّ فيها ، وكذلك الرَّبُّ ـ تبارك وتعالى ـ لما أحيا الْقَلْبَ الميت بِنُورِ الْإِيمَانِ ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ نَصِيبٌ فِيهِ ؟!

وهذا تفسير قول النبي (ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ) . خاليا منفردًا ، وخاليا مخلصًا .

وَكَمَا أَنَّ الْإِيمَانَ حَيَاةُ الْقَلْبِ فَالْكُفْرُ مَوْتُهُ ، أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ.

وعن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال:
"مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت" .

فالقلوب لا تنير إلا بذكر الله ، أما قلب الغافل اللاهي ، فهو في ظلام الليل أغشى ولو أشرقت لعينه شموس الضحى ، فأني ينير وقد غفل عن ذكر ربه الذي هو (نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

٣. تمكن الشياطين منه فيهلكونه .

قال ﷻ: " وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) الزخرف .

(العشا) :سُوءَ البَصَرِ من غير عَمىً . (لسان العرب لابن منظور) .

فهو يتعامى . قصدًا دون عمىً . ويعرض عن ذكر الرحمن . عنادًا وجحودًا من عند أنفسهم . قد عرف أنه الحق لكنه تجاهل وتغابى وآثَرَ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ الْبَيِّنِ ، (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ) ، لذلك ـ ولما كان الجزاء من جنس العمل ، وكما قيل: إن الله يعاقب على المعصية بالتزيد في المعاصي ـ لذلك سلط الله تبارك وتعالى عليه شيطانًا (من الإنس والجن) فهو له قرين ، ملازم له لا يفارقه في حياته يحمله على المعاصي ويزين له السوء ؛ فيظن هذا العاشي المعرض عن ذكر الرحمن أنه على الحق المبين .

وهذا عقابُ مَن يغمض عينه عن ذكر الله بأن يختم الله على قلبه بعدم الفلاح .
حَتَّى إِذَا جَاءَنَا هذا الغافل ، (وقُرِئ : جاءانا) أي هو وشيطانه مقيدين في سلسلة واحدة يوم القيامة ، قالَ لشيطانه : يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ (ما بين المشرق والمغرب) . فبئس الصاحب كنت أنت أيها الشيطان في الدنيا ، وبئس الصاحب أنت اليوم في النار .

وَلَمَّا كَانَ الِاشْتِرَاكُ فِي الْمُصِيبَةِ فِي الدُّنْيَا يَحْصُلُ بِهِ تَسْلِيَةٌ لِمَنْ شَارَكَهُ فِي مُصِيبَتِهِ ،
كَمَا قَالَتِ الْخَنْسَاءُ تَبْكِي أَخَاهَا:

وَلَوْلا كثـرةُ الْبَاكِيـنَ حَوْلـي ... عَلَى قَتْلاهمُ لقتلتُ نَفْسي .
وَمَا يَبْكُون مثلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُسَلِّي النفسَ عَنْـهُ بالتأسِّي .

فقد قَطَعَ اللَّهُ ذَلِكَ بَيْنَ أَهْلِ النَّارِ، فلا يحصل لهم بذلك تأسٍّ أو تَسْلِيَةٌ أو تَخْفِيفٌ .

فلن ينفعكم اشتراككم في العذاب ، ولن يُغْنِي عَنْكُمُ اجْتِمَاعُكُمْ فِي النَّارِ ، كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه .

وفي الآيات إشارة إلى أنه من داوم على ذكر الله لم يقرنه الشيطان .

وقال ﷻ:" وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤). الزخرف .

وما أعمى هذا العاشي عن ذكر ربه ، وما جعل قلبه غافلا عن ربه إلا حبُّ الدنيا ومتاعها القليل الزائل ؛ فلقد أخبرنا ربنا قبلها أنه لولا أَنْ يَعْتَقِدَ كَثِيرٌ مِنَ الجَهَلَةِ أَنَّ عَطَاءَ اللهِ المَالَ لِلنَّاسِ دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّتِهِ تَعَالَى لِمَنْ يُعْطِيهِ فَيَجْتَمِعُوا عَلَى الكُفْرِ لأَجْلِ المَالِ، وَيَرْغَبُوا فِيهِ إِذَا رَأَوْا سعةَ الرِّزْقِ، لَجَعَلَ اللهُ لِبُيُوت مَنْ يَكْفرُ بِهِ سُقُوفاً مِنْ فضَّةٍ، وَسَلاَلَم مِنْ فِضَّةٍ يَصْعَدُونَ عَلَيْهَا،ولِبُيوتِهِمْ أَبْوَاباً مِنْ فِضَّةٍ وَسُرُراً مِنْ فِضَّةٍ، يَتَّكِئُونَ عَلَيْهَا ، وَلَجَعَلَ اللهُ تَعَالَى لِبُيوتِهِمْ زَخَارِفَ ذهبًا وَزِينَةً ، وَلَكِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَيْسَ إلاَّ مَتَاعٌ قَصِيرٌ زَائِلٌ، وَالآخِرَةُ بِمَا فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ خَالِصَةٌ لِلْمُتَّقِينَ الذِينَ يَخَافُونَ رَبَّهُم لاَ يُشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ غَيْرُهُمْ .

ثم ذكر هؤلاء الذين لا هم لهم في الدنيا إلا الدنيا وملذاتها وشهواتها ، فقال ﷻ :

" وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَن" الآية .

ولذلك فإن هؤلاء - يوم القيامة - ينادون أهل الجنة ، لا يطلبون منهم إلا ما طلبوه في الدنيا (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) ؛ حيثُ كَانَتْ رَغْبَتُهُمْ وَشَهْوَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا فِي الشُّرْبِ وَالْأَكْلِ وَفِي الْآخِرَةِ ظَلُّوا عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ يَمُوتُ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ وَيُحْشَرُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ .

يقول ﷻ : وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ . . .الآية .

فإن هؤلاء إذا وقفوا عَلَى النَّارِ، يُقَالُ لَهُمْ ؛ تَأْنِيبًا: قدِ استَمْتَعْتُمْ بكل الطَّيِّبَاتِ والنَّعِيم ، واستَوفَيْتُمُوهُ في حَيَاتِكُمُ الدُّنيا واستَهْلَكْتُمُوهُ فِيها، ولم يَبْقَ لَكُم شَيءٌ غيرُ الخِزْيِ وَالإِهَانَة.

٤. ويل لهم في الدنيا والآخرة :

قال ﷻ: " أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) الزمر .

واعلم أن شرح الصدر على نوعين : أحدهما : " أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ" اللهم اجعلنا منهم ، وهذا مطلوب موسى ﷺ لما قال : رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) طه .

والآخر :"وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" .

واعْلَمْ أَنَّهُ ﷻ حَكَمَ عَلَى الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ بِحُكْمٍ فِي الدُّنْيَا وَبِحُكْمٍ فِي الْآخِرَةِ، أَمَّا حُكْمُهُمْ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ الضَّلَالُ التَّامُّ كَمَا قَالَ: وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (الرعد: ٣٣) ، وَأَمَّا حُكْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) الزمر .

وَتَقْرِيرُهُ أَنَّ أَشْرَفَ الْأَعْضَاءِ هُوَ الْوَجْهُ حيث لَا يَظْهَرُ أَثَرُ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ إِلَّا فِي الْوَجْهِ ، قَالَ ﷻ : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (عَبَس: ٣٨: ٤٢) .

وقال ﷻ : " وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) " الجن .

وقال ﷻ: "وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) الكهف .

فُرُطًا: حياته ضنك مع أن المال كثير ... **وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ،

زواجات كثيرة فاشلة ... **وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ، أبناؤه فاشلون ... **وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ،

انتكس بعدما كان يحافظ على الصلاة ... **وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**.

فلما فرط هو في ذكر ربه صار أمره كله فُرُطًا ، كعقد انفرطت منه حبة فانفرط الحب كله.

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تِرَةً ، وَمَنِ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا لاَ يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تِرَةً (نقصا وخسرانا) .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : " مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلاَّ قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً " .

٣. نوع يذكرون الله كثيرا ، وهذه من صفات المؤمنين :

قال ﷻ :"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) الأحزاب .

يقول ابن عباس :"ما فرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا معلومًا ، ثم عذر أهلها في حال عذر إلا الذكر فإن الله ﷻ لم يجعل له حدًّا ينتهي إليه ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عقله، فأمرنا : بذكره قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ في البر والبحر، في السفر والحضر، في الغنى والفقر، والصحة والسقم والسر والعلانية وعلى كل حال .

فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو ملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور .

وهذا أول ثواب للذاكرين الله كثيرا .

فالذكر هو العبادة المفروضة بلا حد ينتهي إليه :"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا" ، وبلا وقت تختص به :"وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى" ، وبلا حال تستثنى منه :" الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ" . .

واعلم : أن الأمر في الآية لا ينصب على (اذْكُرُوا)، إنما ينصب على قوله تعالى (كَثِيرًا) . فالمؤمن الذي يخشى عذاب ربه ويرجو عفوه ، لابد ألا ينقطع قلبُه ولسانُه من ذكر الله كثيرًا بلا حد يقف عنده ؛ "يذكره فلا ينساه" .

كقوله ﷻ : " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) " الأحزاب.**فيا من ترجو ثوابه ، اذكره ذكراً كثيراً.**

واعلم أيضا : أن في كل جارحة من جوارح العباد عبودية مؤقتة، والذكر هو عبودية القلب واللسان، وهي غير مؤقتة، بل أُمرنا بذكر ربنا ومحبوبنا قيامًا وقعودًا وعلى جنوبنا.

ومثله قوله ﷻ : " إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) " الأحزاب .

فلم يقرن الله أي عمل من الأعمال السابقة بالكثرة إلا الذكر ؛ لِأَنَّ الْإِكْثَارَ مِنَ الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةِ غَيْرُ مُمْكِنٍ أَوْ ربما عسير ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَمْنَعُهُ تحصيل معاشه مِنْ أَنْ يَشْتَغِلَ دَائِمًا بِالصَّلَاةِ وَلَكِنْ لَا مَانِعَ لَهُ مِنْ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ آكِلٌ وَيَذْكُرُهُ وَهُوَ شَارِبٌ أَوْ مَاشٍ أَوْ بَائِعٌ أَوْ شَارٍ، ولأن جميع الأعمال صحتها بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَهِيَ النِّيَّةُ .

ومن صفات هؤلاء أنهم : يذكرون الله في كل حال :

ففي حال القوة :

قال ﷻ : " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) آل عمران .

فبدأ بالقيام فالقعود ثم الجنوب ، وهذا مع القوة والقدرة .

وهنا تنبيه مهم ، وهو أن المؤمن ينبغي له ألا يغفل عن الذكر حال النعمة والرخاء والقوة ؛ حتى يذكره الله في شدته وألا يكون كقارون هذا الذي نسب لنفسه النعمة إليه، قال ﷻ عنه: إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي (القصص:٧٨). فكانت عاقبته: فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ثم " وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ " (٨١) القصص .

لكن ، تأمل موقف نبي الله سليمان ﷺ وقد رأى عظيم فضل الله عليه وما سخره له، فقال ﷺ :"هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ "(٤٠) النمل .

وهذا مثل قوله ﷻ : "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) الأعراف .

وهذا الآيات مشاهدة في مجتمعنا الآن ، فإن الذَّكَرَ حِينَمَا وَاقَعَ الأُنْثَى (تَغَشَّاهَا) عَلِقَتْ مِنْهُ. وَكَانَ الحَمْلُ فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ خفيفاً لاَ تَكَادُ تَشْعُرُ بِهِ. ثم تَقَدَّمَ الحَمْلُ بِهَا واستَمَرَّتْ بِهِ بِغَيْرِ مَشَقَّةٍ.فلما أَثْقَلَتْ (صَارَتْ ذَاتَ ثِقَلٍ بِكِبرِ الحَمْلِ)، تَوَجَّهَ الزَّوْجَانِ إِلَى اللهِ رَبِّهما مخلصين بِالدُّعَاءِ، بِأَنْ يَرْزُقَهُمَا وَلَداً صَالِحاً (أَيْ تَامَّ الخَلْقِ ، سويّا .كما كانت تفعل عائشة إذا ولد مولود ، فكانت لا تسأل : غُلاَمًا وَلاَ جَارِيَةً ذكر أم أنثى ؟ ، بل :هل المولود خُلِقَ سَوِيًّا صالحًا ؟ فَإِذَا قِيلَ: نَعَمْ، قَالَتِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ، وَأَقْسَمَا عَلَى نَفْسَيْهِما بإدامة الشكر لله على ذلك ، فَلَمَّا رَزَقَهُمَا اللهُ تَعَالَى وَلَداً سَلِيماً سَوِيّاً صالِحًا، نَسِيَا دَعْوَتَهُمَا للهِ ، ونسبا الولد لغيره ، يقولان : " **ما أجملَ الدكتور!** " ، **فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .**

وفي حال الضعف : قال ﷻ : " وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) يونس .

فبدأ بالجنوب فالقعود ثم القيام ، وهذا مع الضعف والضر .

وفي حال الأمن :

قال تعالى:" حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) البقرة .

وفي حال الخوف :

قال ﷻ : " فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) " البقرة .

وَلَمَّا شَدَّدَ اللهُ ﷻ عَلَى المُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوات، وَأَدَائِها فِي أَوْقَاتِها، بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا ، بَيَّنَ بَعْد ذلك أَنَّ هَذِهِ الْمُحَافَظَةَ عَلَى هَذَا الْحَدِّ لَا تَجِبُ إِلَّا مَعَ الْأَمْنِ دُونَ الخوف من عدو

أو غيره ، فَطَلَبَ إلى المُسْلِمينَ أنْ يُصَلُّوا عَلَى أيِّ حَالٍ سَوَاء كَانُوا رَاجِلين أوْ رَاكِبينَ، مُسْتَقْبِلِي القِبْلَةَ أوْ غيرَ مُسْتَقْبِلِيها. فَإذا أمِنَ المُسْلِمُونَ، وَزَالَ الخَوْفُ عَنْهُمْ فَعَلَيْهِمْ إقَامَةُ الصَّلاةِ كَمَا أمَرَهُمُ اللهُ، وَإتْمامُ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا، وَقِيَامِهَا وَخُشُوعِها. وَكَمَا هَدَاهُمُ اللهُ لِلإيمَانِ، وَعَلَّمَهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ، فَعَليهِمْ أنْ يُقَابِلُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ بالشُّكْرِ وَالذِّكْرِ.

وفي حال وقوع مشكلة بينه وبين الله :

قال ﷻ : "**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (١٣٥) آل عمران .

فمِنْ صِفَات أَهْلِ الجَنَّة أَنَّهُمْ إذَا صَدَرَ عَنْهُمْ فِعْلَ قَبيحٌ يَتَعدَّى أثرُهُ إلَى غَيْرِهِمْ(كَغيبَةِ إنْسَانٍ ، أَو صَدَرَ عَنْهُمْ ذَنْبٌ يَكُونُ مُقْتَصِراً عَلَيْهِمْ (كَشُرْبِ خَمْرٍ) ، **ذَكَرُوا اللهَ تَعَالَى** وَوَعِيدَهُ، وَعَظَمَتَهُ وَجلالَهُ، فَرَجَعُوا إلَى اللهِ تَائِبينَ .

ثم قال ﷻ : " **فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ** " ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الاِسْتِغْفَارَ هو الأثر وَالنَّتِيجَة لهذا الذِّكْر .

ومثله قوله ﷻ : " **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** " (٢٠١) الأعراف .

وفي حال لقاء العدو :

فقد قال تعالى لموسى ﷺوقد كلفه بالذهاب إلى فرعون: "**اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي**" (طه: ٤٢)، اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ هَارُونَ مُؤَيَّدَيْن بِمُعْجِزَاتِي، وَحُجَجِي، وَبَرَاهِينِي إِلَى فِرْعَوْنَ ، وَلاَ تَفْتُرا أو تَتَهَاوَنَا فِي ذِكْرِي عِنْدَ لِقَائِكُمَا إِيَّاهُ، لِيَكُونَ ذَلِكَ عَوْناً لَكُمَا، وَقُوَّةً وَسُلْطَاناً كَاسِراً لَهُ .

وقال الله ﷻللمؤمنين عند القتال: "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" (الأنفال: ٤٥).

قال قتادة : افْتَرَضَ اللَّهُ ذِكْرَهُ عِنْدَ أَشْغَلِ مَا يكون عند الضرب بِالسُّيُوفِ .

وأمرهم كذلك بالذكر عند قتال العدو :

قال ﷻ : " **فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣)** " النساء .

فَإِذَا قَضَيْتُمْ صَلَاةَ الْخَوْفِ فَوَاظِبُوا عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، فَإِنَّ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْخَوْفِ وَالْحِذْرِ مَعَ الْعَدُوِّ جَدِيرٌ بِالْمُوَاظَبَةِ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ .

في حال البيع والشراء :

قال ﷻ : "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠)** الجمعة .

يأمرنا ربنا ألا نترك الدُّنْيَا تَشْغَلُنا عَمَّا يَنْفَعُنا فِي الآخِرَةِ، لَعَلَّنا إِذَا فَعَلْنا ذَلِكَ نفلح، ونفوز بِرِضَا اللهِ، وَحُسْنِ ثَوَابِهِ .

فالذكر لا يفارق المؤمن في كل أحواله .

والمتأمل في هذه الآيات يجد الحق تبارك وتعالى أمرنا قبل الجمعة أن نترك البيع، واختار البيع دون غيره من الأعمال ؛ لأنه الصفقة السريعة الربح، وهو أيضًا الصورة النهائية لمعظم الأعمال، كما أن البائع يحب دائمًا البيع، ويحرص عليه، بخلاف المشتري الذي ربما يشتري وهو كاره، فتجده غير حريص على الشراء ؛ لأنه إذا لم يشْتَرِ اليوم سيشتري غدًا.

إذن: فالحق سبحانه حينما يأمرنا بترك البيع، فتَرْكُ غيره من الأعمال أَوْلَى.

فإذا ما قُضِيَت الصلاة وانتهى الذكر ، فإنه أمرنا بالعودة إلى العمل والسعي في مناكب الأرض، ثم يرشدنا إلى أن نذكره أيضا ذكرًا كثيرًا .

فالمؤمن لا ينفك عن ذكر الله في كل أحواله ، فهو في عبادة إذا فرغ منها دخل عبادة أخرى . كقوله ﷻ : " **فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)** " سورة الشرح .

إذن: فالعمل وحركة الحياة (كَبِيرٌ) ، ولكن ذكر الله (أَكْبَرُ) من حركة الحياة ؛ لأن الذكر هو الذي سيمنحك القوة والطاقة، ويعطيك الشحنة الإيمانية، فتُقبِل على عملك بهِمّة وإخلاص.

ومثل ذلك قوله جَلَّ جَلَالُهُ : " لَيسَ عَلَيكُم جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُم مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) البقرة .

فإذا قضيتم مناسككم التي ذكرتم فيها ربكم ، فاذكروه كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا ؛ حيث كانت لدى العرب عادة ذميمة ، وهي: أنهم إذا انتهوا من عرفة وقفوا بمنى يتفاخرون ، فيذكرون مآثر آبائهم، ومحاسن أيامهم، فَيَقُولُ الرَّجُلُ: كَانَ أَبِي يُطْعِمُ الطعام ، ويصل الأرحام ، ويَدْفَعُ الدِّيَاتِ ، لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ غَيْرُ ذِكْرِ فِعَالِ آبَائِهِمْ فَأَنْزَلَ اللهُ هذِهِ الآيَةَ، وأمرهم أن يُبدلوا بذلك ذكر الله .

وما سبق كله ينبيك أن المولى عَزَّوَجَلَّ يبين لنا أن علامة قبول العبادة البدنية أن يتبعها ذكر الله كثيرًا .

وهؤلاء :" رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) (النور) .

وحذرنا ربنا عَزَّوَجَلَّ من انشغال القلب بالمال ؛ لأن ذلك مؤداه الإفلاس في الدنيا والآخرة .

فقال عَزَّوَجَلَّ :"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩)" المنافقون .

وقال عَزَّوَجَلَّ:" وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) ص.

سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ ، لماذا ؟ لأنه أواب ، أي يذكر ربه فلا ينساه ، كثير التوبة إليه ، وهذا الوصف (نعم العبد) ينطبق على العبد ما دام كثير الذكر كثير التوبة .

إنَّهُ أَوَّابٌ : تواب من خطيئته التي أخطأها ، إذ عُرض عليه بعد الظهر الصافنات الخيول التي تأبى أن تقف على أربعة كالحمير ؛ فتقوم على ثلاث، وترفع إحدى يديها حتى يكون طرف الحافر على الأرض. والجياد، السِّراع التى إن طَلبت لَحقت ، وإن طُلبت لم تُلحق . فمدحها إن سكنت ومدحها إن ركضت .

فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي : فيها تأويلان :

الأول : فقال إني أحببت المال والخيل حتى سهوت عن ذكر ربي ، حتى غابت الشمس وتوارت ، فقال ردوا علي تلك الخيول التي شغلتني عن الذكر والصلاة ، فلما ردوها عليه "فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ" فعقرها وضرب أعناقها .

الثاني : فقال إنى أحببت حب الخيل حبا ناشئا عن ذكر ربى (وذلك لأنها عدة الخير وهو الجهاد فى سبيل الله) لَا عَنِ الشَّهْوَةِ وَالْهَوَى ، وما زال مشغولا بعرضها حتى غابت الشمس عن ناظريه . فأمر بردها عليه ليتعرف أحوالها ، "فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ" فأخذ يمسح بيده سوقها وأعناقها ترفقا بها وإكراما لها .

وقَدْ يُحِبُّ الإنسان شَيْئًا لَكِنَّهُ يُحِبُّ أَنْ لَا يُحِبَّهُ كَالْمَرِيضِ الَّذِي يَشْتَهِي مَا يَزِيدُ فِي مَرَضِهِ، وَالْأَبُ الَّذِي يُحِبُّ وَلَدَهُ الرَّدِيءَ، وَأَمَّا مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا، وَأَحَبَّ أَنْ يُحِبَّهُ كَانَ ذَلِكَ غَايَةَ الْمَحَبَّةِ فَقَوْلُهُ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ بِمَعْنَى أَحْبَبْتُ حُبِّي لِهَذِهِ الْخَيْلِ المُجَاهدةِ فِي سَبِيلِ الله .

وفي حديث عائشة الذي رواه مسلم ، قالت : كان رسول ﷺ يذكر الله على كلِ أحيانه .

ولما منع الله زكريا عليه السلام من الكلام عند بشارته بالولد لم يرخص له في ترك الذكر، قال عز وجل :

"قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ" آل عمران:٤١. (فصام عن الكلام كله إلا الذكر).

حتى في الجنة ، لم يحرم الله أهلها من نعيم الذكر فدعواهم فيها: "سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" . (يونس: ١٠) .

مع أن الجنة دار نعيم وليست دار تكليف ، ولكن لما كان الذكر من أعظم نعيم الدنيا لم يحرم أهل الجنة من هذا النعيم.

قال مالك بن دينار: ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله عز وجل .

وقال الحسن: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة ، والذكر، وتلاوة القرآن ؛ فإن وجدتم ، وإلا ، فاعلموا أن الباب مغلق.

وقال ﷻ: "**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)** الشعراء .

استثنى الله ﷻ من الشعراء الغاوين الذين لا يهتدون إلى الحق ، استثنى من هؤلاء الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا فتولوا الرد على الكفار الذين يهجون المؤمنين .

ثواب من يذكر ربه كثيرا :

من ذكر الله يَذْكره :

قال ﷻ :" **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)**" البقرة .

عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَذْكُرُ مَنْ ذَكَرَهُ، وَيَزِيدُ مَنْ شَكَرَهُ، وَيُعَذِّبُ مَنْ كَفَرَهُ . أي كفر بنعمه .

وفي قوله ﷻ :" **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** " أقوال منها :

الْأُولَى: اذكُرُونِي بِطَاعَتِي، أَذْكُرْكُمْ بِمَغْفِرَتِي ورحمتي، **الثَّانِيَةُ**: اذْكُرُونِي بِالْإِجَابَةِ وَالْإِحْسَانِ أَذْكُرْكُمْ بِالتَّودّدِ والغُفْرَانِ ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ: **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** (غَافِرٍ: ٦٠) ، **الثَّالِثَةُ**: اذْكُرُونِي بِالثَّنَاءِ وَالطَّاعَةِ أَذْكُرْكُمْ بِالثَّنَاءِ وَالنِّعْمَةِ. **الرَّابِعَةُ**: اذْكُرُونِي فِي الدُّنْيَا أَذْكُرْكُمْ فِي الْآخِرَةِ. **الْخَامِسَةُ**: اذْكُرُونِي فِي الْخَلَوَاتِ أَذْكُرْكُمْ فِي الْفَلَوَاتِ. **السَّادِسَةُ**: اذْكُرُونِي فِي النِّعْمَةِ وَالرَّخَاءِ أَذْكُرْكُمْ فِي الشِّدَّةِ وَالْبَلَاءِ، بَيَانُهُ: "**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٣)**" الصافات .

السَّابِعَةُ: اذْكُرُونِي بِطَاعَتِي أَذْكُرْكُمْ بِمَعُونَتِي. **الثَّامِنَةُ**:اذْكُرُونِي بِمُجَاهَدَتِي أَذْكُرْكُمْ بِهِدَايَتِي.

التَّاسِعَةُ: اذْكُرُونِي بِالصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ أَذْكُرْكُمْ بِالْخَلَاصِ وَمَزِيدِ الِاخْتِصَاصِ.

الْعَاشِرَةُ: اذْكُرُونِي بِالرُّبُوبِيَّةِ فِي الفاتحة أذكركم بالرحمة والعبودية في الخاتمة.

وقيل :اذكروني فِيمَا افْتَرَضْتهُ عَلَيكم ؛ أذْكُرَكم فِيمَا أُوْجَبْته لكم عَلَى نَفْسِي.

فمدار الدين على قاعدتين أساسيتين: الذكر والشكر.

كما قال النبي ﷺ مجيبًا عائشة رضي الله عنها :

" أفلا أكون عبدًا شكورًا "؟

وقال النبي ﷺ لمعاذ:" والله إني لأحبك ؛ فلاَ تَدَعْ أَنْ تَقُولَ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ " .

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ، يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَالَ اللَّهُ عز وجل : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي ، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُ (ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَطْيَبَ)، وَمَنْ تقرَّب إِلَيَّ شِبْرًا ، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا ، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا(الذراعان مع عرض الجسم) ، وَمَنْ جَاءَنِي يَمْشِي جِئْتُهُ هَرْوَلَةً. كناية عن سُرعة إجابة الله تعالى، وقبول توبة العبد، ولُطفه ورحمته.

قال عز وجل : " اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) العنكبوت .

وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ : ولذكر الله أكبر من كل شيء على الإطلاق، وقيل : ولذكر الله في الصلاة أكبر منه خارج الصلاة ، وقيل : ولذكر الله أكبر من أن تبقى معه معصية.

فإذا تم الذكر ، غفر الله كل خطيئة ومعصية وإن كانت مثل زبد البحر .

لكن ، هل هناك علاقة بين قوله عز وجل(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) ، وقوله تعالى في الحديث (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي) ؟

نعم ، فمعنى **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** : أي ولذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه .

فأي شيء أعظم من أن يذكرك الرحيم الرحمن ؟!

أي شيء أعظم وأجل من أن يذكرك رب الأرباب ، وخالق الأرض والسموات ؟!

هل تخيلت يومًا أن يذكرك الله العظيم الجبار ، ملك الملوك في نفسه ؟!

كيف لعبد ضعيف مخطئ مذنب أن يذكره رب العالمين في نفسه ؟ !

كم نعصيك ونغفل عنك ، وأنت تجود علينا . يا رب . وتمنُّ ، فسبحانك سبحانك !.

جلس ثابت البناني . رحمه الله . يومًا مع أصحابه ، فقال :" إني أعلم متى يذكرني ربي عز وجل ففزعوا منه ، وقالوا :" وكيف تعلم ذلك " ؟ فقال: "إِذَا ذَكَرْتُهُ ذَكَرَنِي " .

من ذكر الله يُذّكره :

قال تعالى :" **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤)** الكهف .

حِينَمَا سَأَلَ الكُفَّارُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قِصَّةِ أَهْلِ الكَهْفِ قَالَ لَهُمْ: إِنَّهُ سَيُجِيبُهُمْ غداً، وَلَمْ يَسْتَثْنِ (أَيْ لَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ) فَتَأَخَّرَ الوَحْيُ عَنْهُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، فَنَبَّهَ اللهُ رَسُولَهُ إِلَى وُجُوبِ رَدِّ المَشِيئَةِ إِلَى اللهِ، وَأَنَّ عَلَيْهِ إِذَا نَسِيَ أَنْ يَسْتَثْنِي وَيَقُولُ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلْيَذْكُرِ اللهَ، فَإِنَّ ذِكْرَ اللهِ يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ. وَإِذَا سُئِلَ عَنْ شَيءٍ لاَ يَعْرِفُهُ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى اللهِ فِيهِ لِيَسْأَلَهُ أَنْ يُوَفِّقَهُ إِلَى الصَّوَابِ. وكأن الله يرشدنا فيقول : وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا اعْتَرَاكَ النِّسْيَانُ لِيُذَكِّرَكَ الْمَنْسِيَّ .

لأنه ما أنساك إلا الشيطان (**وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ**) ، و (**فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ**) .

ويأتي الدواء الفعال لهذا العرض ، فاذكر ربك كي تذكره (**وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ**) .

الذكر حرز من العذاب :

ومن سنن الله الجارية على عباده ، أنه مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَ قَوْمًا وَأَنْبِيَاؤُهُمْ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ حَتَّى يُخْرِجَهُمْ ، ولما كان النبي ﷺ - حال حياته - حرزًا للمؤمنين وقومه من العذاب الأليم ، فلما مات صلوات ربي وسلامه عليه انقطع هذا الحرز ولم يبق للمؤمنين إلا حرز الاستغفار .

وهذا قوله ﷻ :"**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)** الأنفال .

وفي حديث الدجال بيان لمثل ذلك ، لما ذكر النبي ﷺ الدجال لأصحابه أشفقوا منه ، فقال لهم مطمئنا :(فَإِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ) ولن تكون حجيجه إلا بالذكر ، واتباع هذا النبي ﷺ فيما أوحي إليه ."**فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)** الزخرف .

وإن تبين أن الاستغفار والذكر حرز من العذاب فإنه حينئذ يكون حرزا من المرض ؛ لما عَادَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَرِيضًا مِنْ وَعْكٍ كَانَ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبْشِرْ ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : نَارِي أُسَلِّطُهَا عَلَى عَبْدِي الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا ، لِتَكُونَ حَظَّهُ مِنَ النَّارِ فِي الآخِرَةِ .

فاستغفر ربك واذكره يشفِ بدنك " وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) التوبة .

الذكر سبب القوة في البدن :

قال سيدنا عَلِيّ رضي الله عنه لِفَاطِمَةَ رضي الله عنها يومًا : وَاللَّهِ لَقَدْ سَنَوْتُ حَتَّى لَقَدِ اشْتَكَيْتُ صَدْرِي ، (قد تعب صدري من نزح الماء من البئر) قَالَ : وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ أَبَاكِ بِسَبْيٍ ، فَاذْهَبِي فَاسْتَخْدِمِيهِ ، فَقَالَتْ : وَأَنَا وَاللَّهِ قَدْ طَحَنْتُ حَتَّى مَجَلَتْ يَدَايَ (**المجل** : قِشرة رقيقة يجتمع فيها ماء من أثر العمل أو النار ، فإذا برأَ صلُب واشتدّ) ، فَأَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَ : مَا جَاءَ بِكِ أَيْ بُنَيَّةُ ؟ قَالَتْ : جِئْتُ لأُسَلِّمَ عَلَيْكَ ، وَاسْتَحْيَتْ أَنْ تَسْأَلَهُ وَرَجَعَتْ (**يعيش المرء ما استحيا بخير**) ، فَقَالَ : مَا فَعَلْتِ ؟ قَالَتْ : اسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَسْأَلَهُ ، فَأَتَيْنَاهُ جَمِيعًا ، فَقَالَ عَلِيٌّ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَاللَّهِ لَقَدْ سَنَوْتُ حَتَّى اشْتَكَيْتُ صَدْرِي ، وَقَالَتْ فَاطِمَةُ : قَدْ طَحَنْتُ حَتَّى مَجَلَتْ يَدَايَ ، وَقَدْ جَاءَكَ اللَّهُ بِسَبْيٍ وَسَعَةٍ فَأَخْدِمْنَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : وَاللَّهِ لاَ أُعْطِيكُمَا وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَطْوَى بُطُونُهُمْ ، لاَ أَجِدُ مَا أُنْفِقُ عَلَيْهِمْ ، وَلَكِنِّي أَبِيعُهُمْ وَأُنْفِقُ عَلَيْهِمْ أَثْمَانَهُمْ فَرَجَعَا ، فَأَتَاهُمَا النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ دَخَلاَ فِي قَطِيفَتِهِمَا ، إِذَا غَطَّتْ رُؤُوسَهُمَا تَكَشَّفَتْ أَقْدَامُهُمَا ، وَإِذَا غَطَّيَا أَقْدَامَهُمَا تَكَشَّفَتْ رُؤُوسُهُمَا ، فَثَارَا ، فَقَالَ : مَكَانَكُمَا ثُمَّ قَالَ : أَلاَ أُخْبِرُكُمَا بِخَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَانِي ؟ قَالاَ : بَلَى . فَقَالَ : كَلِمَاتٌ عَلَّمَنِيهِنَّ جِبْرِيلُ ، فَقَالَ : إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا فَسَبِّحَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ ، وَاحْمَدَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ ، وَكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ قَالَ علي رضي الله عنه : فَوَ اللهِ مَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ عَلَّمَنِيهِنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ حتى يوم صفين .

وقال رضي الله عنه : "**فكنت أجد فيها قوة وما تركتها أبدًا**".

وفي الحديث إشارة إلى أن ذكر الله عز وجل يُعين البدن كما يعين القلب .

الذكر سبب اطمئنان القلب وسكينته :

قال ﷻ : " الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) " الرعد .

أَي: تسكن قُلُوبهم بِذكر الله وتستأنس بِذكر الله، والسكون بِالْيَقِين، وَالِاضْطِرَاب بِالشَّكِّ، قَالَ الله ﷻ فِي شَأْن الْمُشْركين: "إِذا ذكر الله وَحده اشمأزت قُلُوب الَّذين لَا يُؤمنُونَ بِالْآخِرَة" ٤٥ الزمر . أَي: اضْطَرَبَتْ.

وَقَالَ ﷻ فِي الْمُؤمنِينَ : "الَّذين آمنُوا وتطمئن قُلُوبهم بِذكر الله" .

وهنا ذكر الحق ﷻ أن قلوب المؤمنين تطمئن بذكر الله ، فقال تعالى : "الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ " ، ولو كان الحق سكت عند هذا ؛ لظن الجهال أن حصول الاطمئنان للقلب يكون بالذكر وغيره ، فيدخل في أسباب اطمئنان القلب ما ليس منه ، كالمال والأولاد وشهوات الدنيا وملذاتها وزخارفها ، لكنه ﷻ ذكر بعدها :

" أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" ، ليخبرك - بأسلوب قصر وتخصيص - أن الاطمئنان الحقيقي للقلب لا يكون إلا بذكر الله وحده .

وأنه مهما حاول الوجوديون ممن "أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا" ، إيهام أنفسهم وبعضَ الجهال أنهم مطمئنون في حياتهم ، فأنبئهم أن هذا اطمئنان الجبان الرعديد ، الذي يرتاح - متوهمًا - لعارض ما ، فإذا زال العارض زالت الراحة الوهمية .

واعلم - رحمك الله - أن ذكر الله الذي تطمئن به القلوب ، ليس هذا الذكر الذي تردّده الألسنة ترديدًا آليًّا، دون أن يكون منبعثا من القلب، دافئًا بحرارة الإيمان، فمثل هذا الذكر لا يعدو أن يكون أصواتا مرددة، أشبه بالجثث الهامدة.. لا روح فيه، ولا معنى له..

ومن هنا تكون آفته ؛ فلا يطمئن به قلب، ولا ينشرح به صدر . أما الذكر الذي يقول فيه سبحانه وتعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ.» ثم يؤكده بقوله: «أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» فهو الذكر الذي ينبعث عن إيمان، فتهتزّ له المشاعر، وتدفأ به الصدور، وتطمئن به القلوب . ولهذا قدّم سبحانه الإيمان (الَّذِينَ آمَنُوا)على الذكر (بِذِكْرِ اللَّهِ)؛ حتى يكون للذكر أصل يرجع إليه، وأساس ينطلق منه، وهو الإيمان .

وهنا لطيفة أخرى : حيث إن الحق في علاه ، عبر عن الإيمان بالفعل الماضي « **آمَنُوا** » وعن الاطمئنان بفعل المستقبل..« **وَتَطْمَئِنُّ** » .

وفى هذا إشارة إلى أن الإيمان حالة لا يتحول عنها المؤمن، وأنه لا يوصف بالإيمان إلا إذا كان مؤمنًا.

على خلاف الاطمئنان، فإنه غير ملازم للقلب في كل حال، فلا يسكن القلب إلا حين يسكن فيه ذكر الله عز وجل .

لذلك :

يتساءل الغافل عن أسباب الوساوس التي تمسه في صلاته ؟

هذه الوساوس لا تأتي إلا إن كان القلب خاويًا من ذكر الله ، فإن يكن باب الذكر قويًّا ثابتًا فإنها . الوساوسَ . تتحطم أمامه وتخور كما يخور الثور جاثيًا على ركبتيه مثبورا هالكا مغلوبا .

وحين يتمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطانُ صرعه الإنسيُّ كما يُصرع الإنسانُ إذا دنا منه الشيطان ، فيجتمع عليه الشياطين فيقولون: ما لهذا ؟ فيُقال: قد مسه الإنسي.

ولما كان الاطمئنان من صفات القلب الذاكر :

فإن الغافل قدم لنفسه أسباب الغفلة ، وحينها فلا يلومن إلا نفسه . " **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** (١٠) الحج .

فالمؤمن قلبه مطمئن بالذكر مهما ضاقت الدنيا حوله ، أما الغافل الساهي فمهما اتسعت دنياه واخضرت فإن "**صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**".

ومصداق ذلك آيات كثيرة : أَحَدُهَا: **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**. وَثَانِيهَا: **ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**. وَثَالِثُهَا: **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا**. وَرَابِعُهَا: **فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً**. وَخَامِسُهَا: **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ**. وَسَادِسُهَا: **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**. وَسَابِعُهَا: **أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**. وَثَامِنُهَا: **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ**. وَتَاسِعُهَا: **أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**.

واعلم أن لقلوب المؤمنين حالاتٍ عند الذكر :

١. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الأنفال . أي خافت.

٢. الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) "الرعد .
أي سكنت وهدأت .

فَالِاطْمِئْنَانُ إِنَّمَا يَكُونُ عَنْ ثَلْجِ الْيَقِينِ، وَشَرْحِ الصَّدْرِ بِمَعْرِفَةِ التَّوْحِيدِ، وَالْوَجَلُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ خَوْفِ الْعُقُوبَةِ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ، فَهَذَانِ الْوَصْفَانِ اجْتَمَعَا فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ قَوْلُه ﷻ : **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)** الزُّمَرِ. **وَالْمَعْنَى**: تَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ مِنْ خَوْفِ عَذَابِ اللَّه ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ عِنْدَ رَجَاءِ ثَوَابِ اللَّه.

وعن أبي هريرة، قال :قال رسول الله ﷺ:
"لا يقعد قوم يذكرون الله ﷻ إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده" .

وقد يكون ذكر الله سبب قوة البدن واطمئنان القلب معًا :

قال ﷻ مخاطبا موسى عليه السلام : " **اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)** طه .

أمر الله تعالى نبيه موسى عليه السلام أن يذهب في مأمورية إلى فرعون ولما كان هذا التكليف شاقا، ولما كانت المأمورية تحتاج إلى أمرين يجب أن يتوفرا في المأمور بهذه المأمورية الصعبة وهما : قوة البدن واطمئنان القلب والنفس، فلن يوفر له هذين الشرطين إلا الذكر الكثير والتسبيح الكثير .

ذكر الله حرز من الشيطان :

عن الحارث الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :" إن الله أوحى إلى يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فذكر الأربعة حتى قال : " وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَثِيرًا، وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ، فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا، فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللهِ عز وجل " ، وفي رواية : وكذلك العبد لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله .

فلا حرز ولا حصن من وساوس الشيطان الخناس إلا بالذكر ، ولذكر الله أكبر .

ذكر الله حرز من نسيان الله لعبده :

إن دوام ذكر الرب عز وجل فيه الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه ومصالحها قال عز وجل: "**نسوا الله فأنساهم أنفسهم** " ، وقال : "**نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ** "، وإذا نسي العبد نفسه ، أعرض عن مصالحها ونسيها واشتغل عنها فهلكت وفسدت ، وهذا هو الذي صار أمره كله فرطا فانفرط عليه أمره وضاعت مصالحه وأحاطت به أسباب الخسران والخيبة والهلاك . ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله عز وجل ، "**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** " .

يأمرنا الملك أن نذكره ليذكرنا ، ويحذرنا أن ننساه فينسانا .

فالذكر للقلب كالماء للزرع بل كالماء للسمك لا حياة له إلا به .

الذكر يذيب قسوة القلب:

إن في القلب قسوةً لا يذيبها إلا ذكر الله عز وجل ؛ فينبغي للعبد المؤمن أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله عز وجل .

قال رجل للحسن : يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي فقال : أذبه بالذكر ؛ وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة فإذا ذكر الله عز وجل ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار .

ذكر الله ينجي صاحبه في وقت الشدة :

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ـ رضي الله عنهما ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

"إِنَّ اللَّهَ سَيُسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ لَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا ، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ : هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ ، فَيَقُولُ : لَا يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ : هَلْ ظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ ؟ فَيَقُولُ : لَا يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ : فَهَلْ لَكَ عُذْرٌ ؟ ، فَيَقُولُ : لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ : فَهَلْ لَكَ حَسَنَةٌ ؟ فَيَهَابُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ : لَا ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ : بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَيَقُولُ لَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ : احْضُرْ وَزْنَكَ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ ؟ ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ : فَإِنَّكَ لَا تُظْلَمُ ، قَالَ : فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ ، فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ ، وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ .

وقال جَلَّجَلَالُهُ : " **وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)** الصافات .

فما نجاه عليه السلام إلا ذكره ربه .

فَلَوْلا أنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ: أي: في وقته السابق بكثرة ذكره لربه، وتسبيحه، وتحميده، وفي بطن الحوت ، حيث قال: "**لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**" ، "**لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**"

أي: لكان مقبرته ، ولكنه بسبب تسبيحه وذكره ربه، نجاه الله جَلَّجَلَالُهُ ، وكذلك ينجي الله جَلَّجَلَالُهُ المؤمنين، عند وقوعهم في الشدائد.

وقال جَلَّجَلَالُهُ: " **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (٤٠) التوبة .

فما نجاه ﷺ إلا ذكره ربه .

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ:«مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلاً قَطُّ أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ» .

يقول النبي ﷺ: " تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة".

فالمسلم في وقت الشدة لن يرى (بُرْهَانَ رَبِّهِ) ، إلا إذا كان ذاكرا لله كثيرا وقت الرخاء والنعمة .

وأعظم الذكر القرآن الكريم :

قال ﷻ: " إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ، وَقَوْلُهُ: وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَقَوْلُهُ: ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ، وَقَوْلُهُ: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وَقَوْلُهُ: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ، وَقَوْلُهُ: وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ .

و عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : **قَالَ مُوسَى** ﵇ : يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ ، قَالَ : يَا مُوسَى قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، قَالَ : يَا رَبِّ كُلُّ عِبَادِكَ ، يَقُولُ هَذَا ، قَالَ : قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ يَا رَبُّ ، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ ، قَالَ : يَا مُوسَى لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ ، وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي ، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

وقال الحسن رضي الله عنه :

الذكر ذكران : ذكر الله ﷻ بين نفسك وبين الله ﷻ ما أحسنه وأعظم أجره ، وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند ما حرم الله ﷻ ، فيقول :" **مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**" .

ذكر الله سبب للتوبة والإنابة :

يقول ابن القيم :"**ومن فوائد الذكر** : أنه يورثه الإنابة وهي الرجوع إلى الله ﷻ ، فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله فيبقى الله ﷻ مفزعه وملجأه وملاذه ومعاذه وقبلة قلبه ومهربه عند النوازل والبلايا .

عن أبي هُرَيْرَةَ يَقُولُ:

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

"إِنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي، قَالَ رَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ

لَهُ رَبًّا يَغفِرِ الذَّنبَ، وَيأْخُذُ بِهِ، قدْ غفَرَتُ لِعبْدِي. قَالَ: ثُمَّ لَبِثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذنَبَ ذنبًا آخَرَ، فقَالَ: يا رَبِّ، أَذْنَبْتُ ذَنبًا فاغفِرْهُ لِي، قَالَ: قَالَ رَبُّكَ: عَلِمَ عَبْدِي أَن لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قدْ غفَرَتُ لِعَبْدِي. قَالَ: ثُمَّ لَبِثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذنبًا آخَرَ، فقَالَ: أيْ رَبِّ، أَذْنَبْتُ ذنبًا فَاغفِرْهُ لِي، قَالَ: قَالَ رَبُّكَ : عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لَهُ فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ".

الذكر رأس العبادات :

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالفضة، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ" قَالُوا: وَذَلِكَ مَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: " ذِكْرُ اللهِ عز وجل" .

الله يباهي الملائكة بمن يذكره :

عن معاوية رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : مَا أَجْلَسَكُمْ ؟ قَالُوا : جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلامِ وَمَنَّ عَلَيْنَا بِكَ ، قَالَ : آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَلِكَ ؟ قَالُوا : آللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَلِكَ ، قَالَ : أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ ، وَإِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عز وجل يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلائِكَةَ " .

الذكر سبب مغفرة الذنوب والأجر العظيم :

عن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ، قال: " مَا مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللهَ، لَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَهُ، إِلَّا نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قُومُوا مَغْفُورًا لَكُمْ، قَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ " .

قال جل جلاله: "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ٩ .المائدة. فالله جل جلاله لما حث عباده على الطاعة، فإنه رغبهم بالوعد الجميل ؛ ليكون حثه على وجه التحفيز والترغيب والتشجيع والطمع فيما عنده . **فالله إذا وعد أوفى .**

ولكن انظر معي في قوله ﷻ : " وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) الأحزاب .

فإنك تلحظ في الآيتين نفس الأجر المترتب وهو : (لَهُم المغفرة والأجر العظيم) ، ترتب هناك على الإيمان والعمل الصالح ، وهنا على ذكر الله كثيرًا .

لكن ، هل لاحظت أن الله ﷻ عدل عن الوعد (وَعَدَ) في الآية الأولى ، إلى الانتهاء (أَعَدَّ) في الآية الثانية ، في إشارة بيانية جميلة لطمأنة نفوس (الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ) بأن المغفرة قد تمت لهم بالفعل ، وأن الأجر العظيم جاهز لهم ، ومهيأ في انتظارهم .

وهذا أدعى لاطمئنان النفس البشرية التي لا تهدأ عادة إلا بالتيقن من إتمام الوعد وتنفيذه .

الذكر يثمر المحبة والخوف معا :

يقول ابن القيم:

"وتأمل كيف قال ﷻ في آية الذكر: «وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً» وفي آية الدعاء: «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً» فذكر التضرع فيهما معا، وهو التذلل ، والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء ".

ولكنه ﷻ خص الذكر بالخيفة لحاجة الذكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويُثمرها ولابدّ، فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته، لكن المحبة إذا لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها، بل تضره، لأنها توجب التدلل والإدلال والتفريط والانبساط.

ولهذا قال بعض السلف: "من عبد الله بالحب وحده، فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده، فهو حروري (فرقة تقول بالقدرة المطلقة للعبد) ومن عبده بالرجاء وحده، فهو مرجئ (فرقة تتعلق بالرجاء من غير عمل) ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء، فهو مؤمن" .

وقد جمع الله ﷻ هذه المقامات الثلاثة في قوله سبحانه: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ» .

فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه بالأعمال الخالصة الصحيحة ، ثم ذكر بعدها ﷻ الرجاء والخوف .

من اتبع الذكر نفعه الإنذار :

قال ﷻ : " يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) يس .

فَإِنْ قِيلَ : إِذَا كَانَ الْإِنْذَارُ وَعَدَمُهُ سَوَاءً فَلِمَاذَا الْإِنْذَارُ؟

نَقُولُ : أَنَّهُ ﷻ قَالَ: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ وَمَا قَالَ سَوَاءٌ عَلَيْكَ فَالْإِنْذَارُ بالنسبة إلى النبي ﷺ ليس كَعَدَمِ الْإِنْذَارِ لِأَنَّ أَحَدَهُمَا مُخْرِجٌ لَهُ عَنِ الْعُهْدَةِ والآخرَ سَبَبٌ فِي زِيَادَةِ سِيَادَتِهِ عَاجِلًا وَسَعَادَتِهِ آجِلًا، وَأَمَّا لهم فعَلَى السَّوَاءِ .

ثم قال ﷻ :

إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ... الآية (١١) يس .

فقوله ﷻ:"لِتُنْذِرَ" يَقْتَضِي الْإِنْذَارَ الْعَامَّ للجميع ، سَوَاءً كَانَ مُفِيدًا نافعًا لصاحبه أَوْ لَمْ يَكُنْ ، أما قوله ﷻ: " إِنَّمَا تُنْذِرُ " فَهُوَ يَقْتَضِي التَّخْصِيصَ ، فهو الْإِنْذَارُ الْمُفِيدُ المترتب عليه النفع وهو لا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ اتبع الذِّكْرَ .

وهو مثل قوله ﷻ :" وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ" (٥٥) الذَّارِيَاتِ .

فَكَأَنَّهُ يَقُولُ:

يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ بِإِنْذَارِكَ تَهْدِي وَلَا تَدْرِي مَنْ تَهْدِي ؛ فَأَنْذِرِ الْأَسْوَدَ وَالْأَحْمَرَ وَمَقْصُودُكَ مَنْ يَتَّبِعُ إِنْذَارَكَ وَيَنْتَفِعُ بِذِكْرَاكَ .

ومثل قوله ﷻ :" أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤)"عبس.

وقوله ﷻ "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ(٣٧)ق.

فإنما التَّذْكِرَةُ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلبٌ يعي به، وَأُذُنٌ يَسْمَعُ بها، وَهُوَ حَاضِرُ القَلْبِ.

وقوله ﷻ : " فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠)" الأعلى .

أما قوله ﷻ : " إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) " البقرة .

فإنها خاصة بمن سَبَقَتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) الزمر) ، (وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) الزمر) ، وَسَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ يَمُوتُ عَلَى كُفْرِهِ ، فَأَرَادَ اللَّهُ ﷻ أَنْ يُعْلِمَ النَّاسَ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ هَذَا حَالُهُ دُونَ أَنْ يُعَيِّنَ أَحَدًا .

نحن أمة الذكر :

عَبِيدُ النِّعَمِ كَثِيرُونَ وَعَبِيدُ الْمُنْعِمِ قَلِيلُونَ ؛ فَاللَّهُ ﷻ ذَكَّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ : (اسْتَنْقَذَهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ومكن لهم ، جَعَلَهُمْ أَنْبِيَاءَ وَمُلُوكًا بَعْدَ أَنْ كَانُوا عَبِيدًا للناس ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى فِي التِّيهِ) ، فقال لهم :" يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ" .في أكثر من موضع في القرآن الكريم .

وَلَمَّا آلَ الْأَمْرُ إِلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ذَكَّرَهُمْ بِالْمُنْعِمِ فَقَالَ:"فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (١٥٢) "الْبَقَرَة.

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى فَضْلِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ.

الذكر أعظم أبواب الخير :

قَالَ أَعْرَابِيٌّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ ، مِنْهَا أَتَشَبَّثُ بِهِ ، قَالَ ﷺ : " لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ .

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ الْمَازِنِيِّ رضي الله عنه قَالَ : جَاءَ أَعْرَابِيَانِ إِلَى رَسُوْلِ ﷺ فَقَالَ أَحَدُهُمَا : يَا رَسُوْلَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ ؟ قَالَ :"طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ". وَقَالَ الآخَرُ : أَيُّ الْعَمَلِ خَيْرٌ ؟ قَالَ :"أَنْ تُفَارِقَ الدُّنْيَا وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ " .

ذكر الله يملأ يديك خيرا !

عن ابن أبي أوفى رضي الله عنه قال : قال أعرابي : "يا رسول الله إني قد عالجت القرآن فلم أستطعه ؛ فعلمني شيئا يجزئ من القرآن . قال :"قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله والله أكبر" ، فقالها وأمسكها بأصابعه ، فقال:" يا رسول الله هذا لربي ، فما لي ؟ قال :"تقول اللهم اغفر لي وارحمني وعافني واهدني وارزقني" ومضى الأعرابي ، فقال رسول الله ﷺ :"ذهب الأعرابي وقد ملأ يديه خيرًا" .

لذلك لما أَتَى سُلَيْمٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ يَأْتِينَا بَعْدَمَا نَنَامُ، وَنَكُونُ فِي أَعْمَالِنَا بِالنَّهَارِ، فَيُنَادِي بِالصَّلَاةِ، فَنَخْرُجُ إِلَيْهِ فَيُطَوِّلُ عَلَيْنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ، لَا تَكُنْ فَتَّانًا، إِمَّا أَنْ تُصَلِّيَ مَعِي، وَإِمَّا أَنْ تُخَفِّفَ عَلَى قَوْمِكَ "، ثُمَّ قَالَ: " يَا سُلَيْمُ، مَاذَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ ؟ " قَالَ: والله يا رسول الله! إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ (كلامك الخفي) ، ولكني أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار، فقال ﷺ: يا سليم " أنا ومعاذ حولها ندندن" .

مجالس الذكر مجالس ملائكة :

عن النبي ﷺ ، قال : " إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة (سياحون في الأرض) فضلاء ، يتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم وحف بعضهم بعضا بأجنحتهم حتى يملؤا ما بينهم وبين السماء الدنيا فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء قال فيسألهم الله عز و جل وهو أعلم بهم من أين جئتم ؟ فيقولون جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك قال وماذا يسألوني ؟ قالوا يسألونك جنتك قال وهل رأوا جنتي ؟ قالوا لا أي رب قال فكيف لو رأوا جنتي ؟ قالوا ويستجيرونك قال ومم يستجيرونني ؟ قالوا من نارك يا رب قال وهل رأوا ناري ؟ قالوا لا قال فكيف لو رأوا ناري ؟ قالوا ويستغفرونك قال فيقول قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا قال فيقولون رب فيهم فلان عبد خطاء إنما مر فجلس معهم قال فيقول وله غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم .

هكذا المؤمن يكون مباركا أينما حل .

فمجالس الذكر مجالس الملائكة ومجالس الغفلة مجالس الشياطين .

مجالس الذكر رياض من الجنة :

من شاء أن يسكن رياض الجنة في الدنيا فليرتع في مجالس الذكر .

عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ ، فَارْتَعُوا " ، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ ؟ قَالَ: " حِلَقُ الذِّكْرِ ".

قال سفيان بن عيينة رحمه الله :

إذا اجتمع قوم يذكرون الله ﷻ اعتزل الشيطان والدنيا ، فيقول الشيطان للدنيا:" ألا ترين ما يصنعون" ؟ فتقول الدنيا :"دعهم فإنهم إذا تفرقوا أخذت بأعناقهم إليك" .

وقال أبو هريرة ﷺ:

إن أهل السماء ليتراءون بيوت أهل الأرض التي يذكر فيها اسم الله ﷻ كما تتراءى النجوم.

الذكر سبب السبق والفوز :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنِ الْمُفَرِّدُونَ ؟ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ .

وفي رواية : قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، وَمَا الْمُفَرِّدُونَ ؟ قَالَ:"الْمُسْتَهْتِرُونَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ (المولعون بذكر الله ، لا يتحدثون بغيره ولا يفعلون غيره) ، يَضَعُ عَنْهُمُ الذِّكْرُ أَثْقَالَهُمْ، فَيَأْتُونَ يوم القيامة خفافا" .

فالذكر تعويض للمحب عن فقده رؤية المحبوب .

ذكر الله ﷻ شكر له على إرساله النبي محمدا ﷺ لنا :

قال ﷻ : " كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) " البقرة .

فَلَمَّا ذَكَّرَهُمْ الله هَذِهِ النِّعْمَةَ وَالْمِنَّةَ، أَمَرَهُمْ فِي مُقَابِلِهَا بِالذِّكْرِ وَالشُّكْرِ .

يُؤَكِّدُهُ قَوْلُهُ ﷻ : " لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤) " آل عمران .

فاذكر ربك قبل ألا تستطيع :

قال ﷻ : "حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)" المؤمنون .

وهؤلاء كاذبون لأنهم " وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ "(٢٨) الأنعام .

كان الربيع بن خيثم ، قد حفر له قبرًا لنفسه في داره ، وكان إذا وجد في قلبه قساوة ، دخل فيه واضطجع ومكث ساعة، ثم يقول:"رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ" ثم يقول: يا ربيع قد رجعت فاعمل قبل أن لا ترجع.

فاعمل قبل أن يقول الله :" كَلَّا "، لئلا يقول الله :" وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ" .

يقول ﷻ: " وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)" السجدة .

فداوم على ذكر الله قبل ألا ينفعك بصرك وسمعك .

لطيفة في الآية :

هذه المرة الوحيدة التي تقدم فيها البصر على السمع ، " أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا " ،

قال ﷻ:" إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) الإسراء .

وقال أيضا :" إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) النساء .

وقال ﷻ: " مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) النساء . وقال ﷻ: "شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ " ،

وقال ﷻ : فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ " .

وقال ﷻ:"إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢)الإنسان .

فهؤلاء الغافلون اللاهون :

لا يؤمنون إلا حين المشاهدة العينية ، ولا يحصل عندهم اليقين إلا بالرؤية الوجودية ؛ ولذا ، فإنهم ما قالوا (إِنَّا مُوقِنُونَ) إلا عندما عاينوا النار أماهم ، ورأوها رأي العين . (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) التكاثر) . وقد تكررت فيهم هذه الصفة في القرآن الكريم .

قال ربنا متحدثًا عن فرعون لما عاين الغرق والموت :" حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ

أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) يونس.

ففرعون ما تحرك لسانه بالذكر إلا عندما عاين الغرق والهلاك .

وقال ﷻ : " كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) شعراء .

وقال ﷻ : " إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) يونس .

أما المؤمن الذاكر المتبع الحق فيكفيه النص دون المعاينة ، فهو قال (**إنّا مُوقِنُونَ**) في الدنيا بمجرد معرفته النص ؛ ولذا فإن أعلى مراتب الإسلام الإحسانُ أن تعبد الله كأنك تراه .

مثال تقريبي : لو أردت أن تقطع طريقًا لتصلَ إلى مكان ما ، فلما شرعت في السير ، رأيت لافتةً في أول الطريق مكتوب فيها :" **الطريق مغلق للإصلاحات في نهايته** " ، حينئذ لا يمكنك أن تخطوَ خطوةً واحدةً إلى الأمامِ في هذا الطريق ؛ لأنك عرفت النهاية منذ قرأت اللافتة .لكن ، لو افترضنا أنك تركت دابتك في هذا الطريق لتسلكه وحدها،(كحمار مثلًا) ، فمتى سيرجع ؟ إنه لن يرجع إلا إذا بلغ نهاية الطريق ، ورأى بعينه أنه مغلق .

فيملأ عينه ذرات التراب المتطايرة ، وتصيب أذنه أصوات الآلات المرتفعة ، حينها . وحينها فقط . يطلب الرجوع ، وهيهات له .

وهذا مثال يوضح لنا حال المؤمن الذاكر الذي يعرف النص فيتيقن صدقه ويبني عليه العمل ، بعكس الجاحد الغافل الذي يسير في طريق الغي ولا يبصر إلا وهو في النار . **فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** (٢٢) ق .

فمتى نرجع إلى ربنا ؟!

أَلَمْ يَأْنِ لك أَنْ يَخْشَعَ قَلْبُكَ لِذِكْرِ اللَّهِ ؟!

ذكر أن الفضيلَ بنَ عياض كان شاطرًا في قطع الطريق ، وكان يتعشق جارية، فبينما هو ذات ليلةٍ يتسور عليها جدارًا إذ سمع قارئًا يقرأ:" **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ**" ، فقال: بلى، فتاب وأقلع عما كان عليه، ثم صار علمًا يقتدى به.

فداوم على ذكر الله يا عبد الله! ذكر الناس بربهم، أدخل في خطابك معهم ذكر الله، قل لهم: عفا الله عنكم، سامحكم الله، جزاكم الله خيرًا، الله المستعان، لا حول ولا قوة إلا بالله، فكلما تيسر لك إدخالُ ذكرِ الله أو إدخالُ اسمِ الله في جملة فأدخله، ولذلك كره البعض أن يقال: جُزيت خيرًا، بحذف لفظ الجلالة، ولا أعلمها واردة عن رسولنا محمد، إنما الوارد جزاك الله خيرًا، فالذي يقول: جُزيت خيراً ويحذف لفظ الجلالة خالف الأولى، وخالف الأفضل، فالأفضل تطييبُ الأفواه بذكر الله.

فكن دائم التذكير للناس بربهم، ذكر المعتدين بربهم، وذكر أصحاب المعروف بربهم، وذكر الفقراء بربهم، وذكر الأغنياء بربهم، كلما سنحت لك فرصة فذكر فيها بالله، فهذا ولد آدم يذكر أخاه بربه فيقول:"**لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**" ، وهذه مريم عليها السلام تمثل لها جبريل بشراً سوياً فظنته رجلاً معتدياً فذكرته بالرحمن وقالت له:"**قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا**" ، وهذه ابنة العم لما قعد ابن عمها بين رجليها قالت له مذكرة: (اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه)، وها هو رسولنا يذكر المتلاعنين بعد أيمانهما فيقول لهما مذكراً بالله: (الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما من تائب؟)، ورسولنا يرى أبا مسعود البدري رضي الله تعالى عنه يضرب غلاماً له، فيناديه من خلفه: (اعلم أبا مسعود! لله أقدر عليك منك على هذا الغلام، فالتفت أبو مسعود فإذا برسول الله عليه الصلاة والسلام من خلفه، فقال له: يا رسول الله! هو حر لوجه الله، قال النبي عليه الصلاة والسلام: لو لم تفعل للفحتك النار) ، وها هو يعقوب يقول لبنيه بعد أن أصابه منهم من الهم والكرب ما يكاد يغلبه قال: "**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**". فغلب على لسانك ذكر الله عز وجل وداوم على ذلك .

وجملة الأمر يا أخي: إن أردت الله بطاعة ، أرادك الله برحمة ، وإن سلكت سبيل المعرضين فلا تلم إلا نفسك إذا صرت غدًا في زمرة الخاسرين ؛ فالدنيا لا خير فيها، والله ، لا خيرَ فيها إن خرجت عمَّا يرضي الله ﷿من ذكره والقيام بعبوديته ، والعلم والتعليم .

ولا تنسَ "**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرَ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ أَوْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا**".

مَلْعُونٌ : كل ما يشغل عن الله تعالى ويبعد عنه . **فاذكر ؛ لتذكر .**